تعميد العالم، الجزء الثاني

المتروبوليت سابا (اسبر)

مبدأ مَسحَنة الحياة والمجتمع والتقاليد أمر طبيعي في المسيحيّة، وهو مبدأ قائم في كلّ الأديان. فطالما أنّ الدين يشمل مناحي الحياة جميعها، فمن الطبيعي أن يصبغها كلّها بصبغته الروحيّة من جهة، وأن يتبنّى بعضها، ويصيّره خاصّته، من جهة أخرى. هذا لا يعيب المسيحيّة، بل على العكس، يمنحها قيمة أرفع. فعندما استوعبت المسيحيّة الديانات الأقدم منها، أثبتت أنّها قادرة على أن تمنحها مضموناً جديداً، وأظهرت قدرتها على تلبية طموح البشر الروحي، وإشباع جوعهم إلى الحياة الحقيقيّة، وإعطاء المعنى لوجودهم.

بتعميد ما كان قبلها من أمور حسنة، أثبتت المسيحيّة قدرتها على منح البشر ما يصبون إليه، من روحانيّة وقيَم أخلاقيّة ومجتمعيّة. فباعتبارها متوجهة إلى الإنسان، تبنّت قضاياه، وما وصل إليه من أمور صالحة، فتمّمتها وأعطتها مضموناً جديداً، جاعلة إيّاها وسيلة للخلاص.

يقودنا هذا الكلام إلى التأمّل قليلاً في واقعنا الروحي والرعائي بخاصّة. فإيقاع الحياة، في مجتمعات اليوم، التي باتت لا دينيّة، أو اكتفت من الأديان بالظاهر، لم يعد محصوراً بالبعد الديني. والطابع الدنيوي بات طاغياً، بامتياز، على جميع مناحي الحياة. فحُرِم الإنسان من أحد أهمّ أبعاده، ولم يعد يجد النبع القادر على إروائه. ليس التهافت على الدنيويات علامة إنسان سليم، بقدر ما هو تثبيت لفراغ داخلي يبحث عن ملء، يظنّه في هذه وتلك من فانيات هذه الدنيا.

يجدر بنا، رعاة ومؤمنين، التمعّن في كيفيّة تعميد عالم اليوم ومسحنته، من أجل مخاطبته بلغة أمينة للإيمان، وقادرة على الوصول إليه. هذا يتطلّب، من جهة أولى، فهماً عميقاً للإنسان بعامّة، والإنسان المعاصر بخاصّة، ومن جهة ثانية، فهماً عميقاً للإيمان المسيحي، وتأصّلاً فيه، ووجداناً نقيّاً ممتلئاً بالروح القدس وملهَماً منه.

نظرة سريعة إلى بعض أساليب الرعاية المستحدثة في واقعنا الكنسي، تُظهر سطحيّة مخيفة في التعاطي الإيماني والإنساني، في العديد من الحالات. فعلى سبيل المثال لا الحصر، إقامة سهرة رأس السنة، في مبنى كنسي، لا يعني أنها صارت سهرة مسيحيّة. فإن نُظِّمت على غرار غيرها من سهرات الأماكن العامة، لا تكون قد أتت بجديد. يكون هذا الفعل دهرنة للمسيحية، وتثبيتاً للدنيويّة الماجنة التي تصبغ هذه المناسبة، ووهماً نرّسخه في أذهان المؤمنين بخصوص حمايتهم من مجون السهرات الخارجية؟ لا يتم تعميد تقليد ما بسهولة واستخفاف واستبدال مكان بآخر، أو شيء بآخر يماثله في الشكل فقط!

غاية الكنيسة، جسد المسيح، أن تفتح الإنسان على محبّة المسيح وحضوره الحيّ، لا أن تستبدل فعاليّات دنيويّة بمثلها، ولكن في إطار "مسيحيّ"، ظاهريّاً!!

تعميد العالم، يعني تحويله إلى المسيح، لا تلوين الدهريات بصبغة مسيحيّة خارجيّة. والتحدّي اليوم كبير أمام المؤمنين، على هذا الصعيد. فما يوجد من ممارسات وتصرّفات وسلوكيّات رعائيّة يُظهِر أنّها بحاجة إلى تدقيق وتمحيص جدّيين، بغية أن نتبيّن الضلال المختبئ في أمور كثيرة. هذا يتطلّب أن تولي الكنيسة الرعاية اهتماماً أكثر بكثير ممّا هو حاصل، وأن يساعد المؤمنون في ترسيخ المناخ المسيحي حقاً، لا أن يضغطوا على الرعاة لكي يدهرنوا الرعاية.

علّنا بروح الصلاة، وحضور الروح القدس، نتبيّن، جميعاً، اللازم، كي تكون بشارتنا مستقيمة، وشهادتنا أمينة، فنُسهِم في خلاص الإنسان الذي أتى الله من أجله.